احتضان غير مرئي

ليل اسطنبول، والطائرة تحوم فيه للهبوط، ذكّر نهى ببيت للمعريّ الضرير:

سميرة المانع

ليلتي هذه عروس من الزنج
عليها قلائد من جمان

توجهت أنظار الركاب نحوه للاطلالة عليه من نوافذ الطائرة ورؤوس بعضهم التصقت ببعض من كثرة التحديق والاعجاب. لم تشذ الاختان عن ذلك إلا أن لواعجهما كانت مختلفة، فالعمى من نصيبهما كحظ الشاعر. راحتا تنظران للانوار المتألقة تحتهما وهي تغمز وتلمظ وتغري في الكازينوات والملاهي، في الشوارع والساحات والبيوت، بفيضانات النور وهي تحثهم على السهر حتى الصباح بينما هما لا تزالان في الدكنة، قلقتان خائفتان. تفكران كيف ستتولى هذه المدينة أمرهما عند الهبوط في مطارها بعد قليل. هما المرأتان شبه الضائعتين وهي الغارقة في نعيم وجحيم، المكتظة بسكانها المنوعين منذ حقب التأريخ العتيق و أحيانا العنيف. لا جديد عندهما سوى أنهما ركبتا الطائرة المتأخرة بلندن، مع بقية ركابها، وجهابذة المطار وشركة الطيران العتيدة، صم بكم. لم يشيرا لهما ماذا ستفعلان عند الهبوط. الاختان حائرتان مهمومتان. إنهما تعرفان ما المقرر لهما في بطاقة السفر الاصلية الموجودة عندهما في الحقيبة. المفروض أن يلتحقا، رأسا، بطائرة أخرى لنقلهما إلى ديار بكر. إلا أنهما شبه متأكدتين لن يعثرا عليها الآن، بسبب تأخرهما، وهي لن تنتظرهما طويلا، أقلعت قبل وصولهما، بموعدها، بالتأكيد.

طقوس ومعاملات السفر من لندن إلى اسطنبول أخذت منهما جهداً ووقتاً طويلاً، يتجاوز نهاراً بكامله. كلتاهما تعبتان يائستان، لم يبق عليهما إلا أن تنادي الواحدة على الأخرى محذرة أياها باستغاثة مألوفة لديهما: " ضعنا، ضعنا" في هذا الليل الغامض المريب. الركاب الآخرون مشغولون بأنفسهم وحقائبهم يتهيئون للقاء أحبتهم الذين عرفوا بتأخر الطائرة وهم لهم غافرون، بينما هما تسيران معهم، كالإمعة، يدفعان حقائبهما أمامهما للوصول إلى نقطة الخروج منتهيتين من معاملات أوراق المطار الرسمية لتبدأ معاملة العالم الخارجي.

فجأة اندفعت نهى مظهرة أصواتَ بهجةٍ واغتباط مسرعة إلى أحد الرجال الواقفين المفتشين بحرص في وجوه ركاب طائرتهم القادمين. من هيئته، يريد أن يتعرف ويستدل عليهما عن طريق الاسم الذي يحمله في لوحة صغيرة من الورق المقوى مكتوبا عليها الآسمان باللغة الانكليزية بخط كبير واضح للعيان: (نهى منير)

و (لمياء الناطق) نسبة إلى حمل لمياء للقب زوجها كعادة الالقاب للنساء المتزوجات ببريطانيا. تبعتها الاخيرة تحذو حذوها فرحة باتجاه الرجل الواقف بعد أن لمحت اسمها، أيضا، مكتوبا على اللوحة المقوى مرفوعا للاعلى، مدركة الغاية من رفعه. عرفت شخصها له، كما فعلت أختها، شاكرة الرجل وكأنه أنقذهما من الغرق المتوقع بقارب صغير. أخبرهما كأي رجل مسؤول أنه موظف مرسل من شركة خطوط الطيران ومكتب الحجز فيها، يخبرهما الآن، أن طائرتهما المحجوزة المتوجهة إلى ديار بكر قد غادرت في موعدها، للاسف، وما عليهما إلا قضاء الليلة باسطنبول على أمل السفر غدا على متن نفس الطائرة الذاهبة إلى ديار بكر في الساعة التاسعة صباحا. لقد رتب مكتب الحجز معاملة المبيت لهما الليلة، في الفندق على حسابه، وهويعتذر لتأخر طائرتهما بلندن، والجميع يعلم بالتأجيل.

ماذا تفعل الاختان الآن بعد هذا التطمين؟ الرقص وحده لا يكفي. انتشرت السعادة على محياهما وهما يسمعانه يطمئنهما أن هناك حافلة قادمة للمطار بعد ساعة ونصف ستأخذهما إلى الفندق المحجوز. سلمهما بطاقة عنوان الفندق مع اسمه مودعا. أقليل ما أزيح من ثقل من على صدريهما؟ جبل حمرين الاصم، شمال العراق، واقفا يصفق أنسا وطربا. بعد ذلك تريدان الذهاب إلى غرفة المرافق الصحية واحدة بعد الاخرى. من تجلس أولاً لحراسة الحقائب،الآن؟ وافقت نهى أن تجلس قربها. وهرعت لمياء مفتشة عن الغرفة. أين هي؟ أين تكون في القاعة؟ عثرت عليها بعد هنيهة بسهم معلق فوقها صغيرمضئ. وجدت المكان محتشدا بالمنتظرات دورهن للدخول لتواليت النساء... صبرا..صبرا اقنعت نفسها، لم يبق إلا القليل. أثناء انتظارها لفتت نظرها ثلاث نساء أعمارهن بين الثلاثين والخمسين. نظرت اليهن بتمعن خصوصا أنها تلمح على خد إحداهن ما يسمونه بالعراق (أخت أو حبة بغداد) وهي بثرة فريدة يبقى أثرها بالوجه، بعد أن تشفى، عند سكان بغداد بالذات. إنهن عراقيات بالتأكيد. أقتربت منهن متسائلة:

– نعم، نحن عراقيات، كما حزرت، سنسافر إلى الصين.

– ماذا؟ إلى الصين؟!

– صحيح، لقد اختارتنا شركة نسيج وادي الرافدين للذهاب إلى هناك من أجل التدريب.

أوشكت لمياء من عظم السرور بهنّ، على التهليل والتكبير. صارت تسألهن عن أحوالهن وأحلامهن بعد سقوط النظام. هل السفر للخارج مفتوح للجميع؟ ما مدى حرية المرأة؟ كيف يفرح العراقي عندما يبتهج صدقا، حقا، من الاعماق؟ عرفت النسوة أن لمياء تسكن لندن وفضولها كبير. أخبرنها بتفصيل عن أمنية الشعب بعد التغيير، كي يعيش بأمان، بعيدا عن الصراعات والحروب، مشتكيات من أن الأخيرة حصدت الكثير منهم وخصوصا بين الشباب. أنبرت الوسطى متأسفة كونها لم تتزوج حتى الآن، بسبب ذلك، وقد بلغت من العمر ما تخشى أن لا يساعد على طلب الزواج. بالاضافة أن الرجال بالعراق حاليا مشغولون بالسياسة وترتيب أمورهم. اشتكيتا من بعض التحرش والمضايقة للنساء السافرات في الطريق. قسم يقول أن العودة للدين صارت هي الملاذ الأخير. ابتسمت إحداهن: " لكن أي دين؟! دين التعصب والانغلاق".

قالت الكبرى أن زوجها يرفض في الماضي أن يراها محجبة، لكن بسبب الهجمة الأخيرة عليهن أقترح عليها أن تفكر في ارتداء الحجاب، لكنها ترفض رفضا باتا أن تعامل كجداتهن المسكينات في زمن (العصملي)، ملفلفات خائفات من الرجال، وهؤلاء ينظرون لهن كعورة، يقضين حياتهن كلها، بالوعيد والتهديد. ذاك الزمان فات وانقضى. هيهات النكوص بعد أن تحررت المرأة الحديثة. استمرت النسوة يعددن مشاكل بعض المناطق المضطربة، ذاكرات نزعات غريبة على المجتمع العراقي، حيث الأمان مفقود والاميركان غلاظ يردون على المسئ بقسوة مفرطة، فضلا عن أنهم حلوا الجيش والشرطة فكيف بالامكان القبض على المخالفين المجرمين. بلد بلا شرطة معناه بلد فوضى بدون قانون.. أضافت الكبرى معقبة:

– أن ما جرى من حرمان للشعب العراقي طيلة ٣٥ سنة خلت ظهرت نتائجه الآن بوضوح. سواء من إحكام إغلاق الابواب والنوافذ عليه، منعه من استعمال حتى طابعة يدوية في البيوت، إلا ربما للمقربين، ناهيك عن الفاكس والانترنيت والهاتف النقال والصحف والكتب الاجنبية، والويل لمن تكون عنده فضائيات تلفزيونية بالستلايت، يرى العالم من خلالها، فهذا مصيره الحبس أو الغرامة في حالة الرأفة به. ولا ننس قوانين منع السفر بكل اعتباط. كل هذا التعتيم والتعويق للنمو الطبيعي للافراد، آخر المجتمع وأكثر جهله حول ما يجري بالعالم من تطور. أفقد معظم جيل الشباب النشوء التدريجي العقلاني. لم يعودوا قادرين على تحمل رؤية فتيات يسرن سافرات، متحررات، في الطريق، أو يشاهدهن على الفضائيات يتحدثن بشكل طبيعي سعيد، يبدي امتعاضه وانزعاجه حين يذهب المرء إلى دار سينما للتسلية كما تفعل معظم شعوب الارض، وكان العراقيون دائما، تواقين للفنون والآداب والافلام من ضمنها، متمتعين بها منذ أوائل القرن العشرين. يتطورون باستمرار بشكل جيد معقول، قبل الحصار والرقابة والمنع الذي مورس عليهم ثم جاء التحريم والتجريم بعد ذلك. لقد أعادهم النظام السابق للطاعة العمياء، فيما سماه بالحملة الإيمانية الزائفة، ولم يكتف بالتدمير الروحي، بل أعادهم إلى عصور الظلمة، صاروا عجائز بالتفكير يفكرون فقط بالحياة الأخرى عند الموت. هم بحاجة إلى وقت لهضم تطورات العصر الحديث من ناحية العلم، استيعاب ما بلغته المرأة الحديثة من تقدم بجهودها ونضالها، كما تعرفن.

بعد أن أنهت كلامها، ابتسمت، معتذرة، قائلة:" لقد أطلت عليكن الحديث، سامحنني، هذا ما يشعل النار في قلبي، وقد نطقت به "، أضافت الصغرى تؤيدها في التحليل:

– لايجرؤ الآن، أياً كان، في البلدان المتطورة، أن يفكر في العودة بالمرأة إلى القرون الوسطى. وأنت تجربتك بالحياة أفضل منا، فلا تثريب عليك لو وضحت بعض الامور.

بعد أن أصغت لمياء إليهن بود، ذكرتهن أن الشعب في النظام السابق كان مسيّسا، يحتاج إلى فترة نقاهة كي ينسى الماضي ومعه الآثام والجروح. سألتهن بصداقة: " هل كنتن منضمّات إلى حزب البعث؟ " اجبن مواريات ضحكة بافواههن خجلى: " وهل يمكن أن لا نكون؟!". شعرت بعد هذا اللقاء أنها أمام عائلة يشكو أفرادها من سوء تصرفات بعضهم بعضا. إبتدأن يتمنين أن يتعظ الجميع ويأخذوا العبرة من تطور شعوب أخرى، بالطريقة المؤدية إلى الاصلاح، فيكفوا عن إيذاء البريء، مكتفين بمعاقبة المسئ أمام المحاكم ووفقاً للقانون، آملين أنهم بصدد القيام بتعديلات على هذا الأخير وصياغته ليرضي الشعب بكل اطيافه بالشكل الممكن.

متى تصل إلى أختها. لديها أخبارمنعشة مثيرة لنهى الجالسة في صالة مطار اسطنبول تحرس الحقائب. لاحظت حين وصلت إليها، أنها تمسك بيدها صحيفة إنكليزية منهمكة في قراءتها بجد. يبدو أنها أنزلتها معها من الطائرة قبل قليل:

" اسرعي، اسرعي، قبل أن يسافرن إلى الصين، وجدتهن قرب المغاسل. عراقيات ثلاث، خارجات توا من العراق، إنظري إليهن كيف يتحدثن. روعة".

نهى، من دون كلام أو تعليق، شرعت بطي صحيفتها، مسرعة بحرص للذهاب لرؤيتهن. عندما وصلت المكان كن قد غادرنه، فتحسرت. شغلت نفسها، بعدئذ، بغسيل وجهها وتمشيط شعرها المشعث من وعثاء السفر. أنهت ما عليها للظهور بمظهر لا بأس به، حسب ما تتصور، عائدة للصالة. جلست الاختان مستأنفتين الانتظار للحافلة التي ستقلهما إلى الفندق، كما وعدتا به.

لا يحتاج الفندق العامر الضخم إلى أكثر من دليل. جدرانه العالية وشبابيكه المضاءة تشي بالكثير. دخلتا وقادهما أحد الندلاء إلى غرفتهما في الطابق الثالث عشر، دافعا عربة حقائبهما أمامه كخبير بالطرق. عند الوصول إلى غرفتهما فتح الباب ببطاقة ورق صغيرة بدل استعمال المفتاح الحديدي المعهود. هذا دليل آخر واضح على وصول الفندق إلى أقصى درجات التطور في خدما ت الفنادق باستعمال التكنولوجيا الحديثة. بعد أن غادرهما، أخذتا البطاقة من الباب وصارتا تجربانها بينما هما غارقتان في الضحك. معترفتين بجهلهما في التغييرات الحديثة في عالم الفنادق اليوم. " غدا نستيقظ، يا نهى، مبكرا، مع العصافير" قالت لمياء لاختها مذكرة وناصحة. لكن الثانية أبت أن تنام الآن، محتجة. تريد تغيير نمط سلوكهما منذ الليلة: " أوه، تعالي نخرج بعد الاستحمام للتجوال في الفندق" ردت لمياء موافقة مداعبة: " سمعا وطاعة يا مولاتي". خرجتا بعد قليل، وكأن قحط نجد وجفافها، قبل اكتشاف النفط في القرن العشرين، لا زال عالقا بهما. هنا، وهناك، قاعات جلوس فخمة مبعثرة كالنرد. مطاعم مقاعدها من الجلد الفاخر، مقاهي مزركشة باعلام تركية وبلدان مختلفة صديقة لها وشركات أجنبية، حدائق، مسابح يلصف ماؤها تحت الاضواء. هل يستطيع المرء أن يستوعب هذا كله في ليلة واحدة. إنها لا تكفي للالمام بهذا الترف المجاني. اتجهتا إلى مقهى جانبي صغير. طلبتا فطائر محمصة وساخنة مع بعض الاجبان. لتشرب قهوة تركية، أيضا، هنا في موطنها حسب تسميتها، هل الطعم واحد ترى؟! كلتاهما تريدان تجريب القديم والجديد. أثناء العودة لغرفتهما، أطلتا على مقهى فسيح مكشوف على سطح في الطابق الثالث عشر تحت القمر والنجوم. وكأن ذلك لا يكفي فوضعت على جميع مناضده شموع تذوب ببطء كسول. زبائنه كما يبدو، من نوع آخر، أزواج في شهر العسل، عشاق، أشخاص ميسورون محبون للدلال والمتعة والترف. البذخ على قدم وساق، يكفي أن يشم المرء بانحائه العطور ويسمع صوت موسيقى حالمة لليالي السمر. دخلتا فيه بتصميم، أرادتا أن تكتشفا كيف يعيش البعض. وجدتاه يطل من الجانب الآخر على مضيق البسفور الخلاب، أضواء سفنه العائمة تتراءى من بعيد تمخر. انسحبتا بعد أن اشبعتا فضولهما، آملتين في الوصول السريع إلى غرفتهما بهدوء. يكفي الوقت الذي كان مملوءا باحلام اليقظة وها قد حانت أحلام المنام.

في الصباح، اعطت لمياء لأختها بسكويتا مغلفا بالسيلفون:" خذي، لنأكله في الطريق". لكن الحاجة لم تعد ضرورية. فقد وفرت الطائرة التي أقلتهما متوجهة إلى ديار بكر فطوراً شهياً معظمه من مربيات فواكه المنطقة. مشمش. تين. هناك بيض مسلوق أيضا، من دجاجاتها. أكلته لمياء مبالغة بالتلمظ والاستحسان، معلقة على الطعم:" إنه لذيذ، بيض حجمه كبير. الدجاجات التركيات ما قصرن والله، المسكينات ". ضاحكة أثناء الثناء في التعليق على الجودة.

هبطتا من الطائرة وأخذتا سيارة لنقلهما إلى حشد المسافرين الراغبين في دخول العراق، من الجانب التركي. كان عددهم كبيرا، متجمهرين راغبين للوصول إليه، بعد سقوط النظام، من هذه النقطة. وصلتا إلى نهاية الطابور بشق النفس، لختم الجوازات. مع ذلك كانتا في منتهى النشوة والارتياح، على رغم التعب الجسدي. أمامهما، قريبا، سينبسط العراق، البلد الذي فارقتاه على الرغم منهما، لعشرات السنين. أحستا بمعاناته ومكابداته طيلة هذه الاعوام أثناء ما كان يكبو وينطرح. دخلتاه مشيا على الاقدام وكأنهما تسيران على حرير، من خلال باب (ابراهيم الخليل)، الحد الفاصل بين العراق وتركيا. لم يفت لمياء التعليق على وطنها كونه عاطفيا عاشقا لذكريات الماضي حتى بتسمية الامكنة فيه. وطئتا أرضه دون خوف أو آرتجاف مطمئنتين راضيتين، مستعدتين، بتصورهما، للوصول إلى مدينة البصرة في الجنوب، سيرا على الاقدام. كانتا في أعلى المعنويات الروحية، تديران رأسيهما فيما حولهما من وديان وجبال وسهول، تتساءلان باسلوب استنكاري: " معقولة، وصلنا ". ماذا تريدان بعد؟! سيارات وعمال وسواق يروشون. حملتا حقائبهما متوجهتين إلى مكتب الجوازات من الجهة العراقية لاثبات دخولهما اليه، بعد ارشادهما. خرجتا منه تتنسمان رائحة الارض الخضراء والمغبرة، النباتات الميتة والحية فيه. بمجرد أن تلفظت إحداهما باسم مدينة (دهوك) حتى تقدم أحد السواق لفتح باب سيارته: تفضلا. تبين أن السائق كردي لا يفقه اللغة العربية، مثلما كانتا تجهلان لغته الكردية. لم تعبآ بذلك ووثقتا به. هناك تواصل بينهما جميم خفي. إحساس مودة دفين. ربما يعزى للمواطنة، كما يقول السياسيون. عاشتا، بعدها، في حلم آخر بعد سير السيارة لبلوغ المدينة المقصودة، ابتدأ بضياع وانتهى باحتضان غير مرئي.❖

❖ الفصل السادس عشر من رواية (مَن لا يعرف ماذا يريد) المعدة للطبع.

السيد الذي عزف على قيثارة الآلهة بأصابع من نار

صلام حسن

اتصلت به بعد عودتي من كولومبيا مباشرة فقال إن الطبيب الذي يشرف على علاجه شخص ذكي وهو بصدد تركيب نوع من الأمصال التي تقوم بامتصاص الأملاح الزائدة من الجسم وسوف ينتهي كل شيء قريبا. قلت له: حسنا، بعد المراجعة الأخيرة للطبيب أريد منك إن ترسل المخطوطة بسرعة لان الناشرة الهولندية تسأل عنها كثيرا وتريد إن يظهر ديوانك قبل نهاية هذه السنة. هذا ما اتفقنا عليه وبعد ذلك لم يعد يرد احد على التليفون، ذهب سركون بولص من جديد إلى مكان لا يعرفه احد كما حدث ذلك قبل أربعين عاما عندما غادر بغداد إلى دمشق بدون أوراق رسمية ولا أموال وسيرا على الأقدام، ثم بعد ذلك إلى بيروت والتيه أخيرا خلف المحيطات.

قبل ثلاثة أشهر فقط كان يقف على قاعة المسرح الملكي في مدينة روتردام وهو ينزف قصائده نزفا، نصوصا جعلت الجمهور الهولندي يقف على قدميه ويصفق له أكثر من عشرين دقيقة. وبعد إن انتهى من القراءة جاءتني الناشرة والشاعرة الهولندية هنريته فاس وطلبت مني إن أقدمها له فطلبت منه إن تصدر له ديوانا باللغة الهولندية. ثم سارعت إلى المترجم كيس نايلاند الذي ترجم بعض النصوص إلى الهولندية واتفقت معه على المباشرة بالترجمة حال وصول النصوص. السريان والعرب والكرد العراقيون الذين حضروا مهرجان روتردام الشعري كانوا يحيطون به مثل قديس جاء ليخلصهم من غربة طويلة بوصفه سيد هذه الغربة وعارف صحاريها وبحارها وبردها. كانوا يحدثونه بالسريانية وهو يرد بالعربية ويعتذر عن الدعوات الكثيرة التي يتقدم بها محبوه الذين لم يتركوه حتى في صالة الفندق بعد منتصف الليل.

كان متعبا ولكنه تعب الكريم، وكان سقيما طوال حياته التي شاخت على حين غرة بداء اسمه العراق ولم تمنحه اية فرصة إضافية، هو الذي منح الآخرين كل شيء وبقيت سلاله فارغة. فلم يكن كذلك قبل أربع سنوات في لاهاي، لم يكن أبدا كذلك حينما سهرنا إلى ساعة متأخرة في بيت احد المحبين. ولم يكن كذلك حين التقينا في الرباط عام ٢٠٠٠.. كلا فقد كان جموحا بعيني صقر استوقفته إحدى الجميلات الجسورات في الشارع وأربكت حركة السير والشعراء والمارة في وسط المدينة، قالت له بكل جسارة: أنت جميل وساحر وأربكت المكان والناس، والشعراء ظلوا ينظرون إلى عينيه المفتوحتين على أفق مذهول.. قال سوف ابقى في المغرب من اجل هذه المرأة المدهشة ولكنه كان محكوما بالنفي يغادر المسرات. لم يكن كذلك أبدا حين عاد للمرة الأخيرة الى بغداد قبل واحد وعشرين عاما من اجل إن يحمي جان دمو من برد بغداد ويقدم له سترته الثمينة مع قنينة من العرق وورقة من فئة خمسة وعشرين دينارا ذات ألأحصنة الثلاثة. قال لي انه يريد إن يودع أباه الذي يرقد على فراش الموت، لم آت لرؤية بغداد فبغداد ماتت منذ إن غادرتها مجبرا.

قال لي يومذاك انه يريد إن يرى هذا المجنون " ميخا " مرة أخرى، المجنون الذي عاد في اليوم التالي إلى فندق المنصور وقد استبدل سترة سركون بولص بقنينة عرق في أخر الليل. ولكن سركون الكريم لم ينزعج من ذلك، بل تألم لأنه رأى الخراب في عيني جان دمو الذي يختزل المشهد العراقي كله. لقد صمت كثيرا في ذلك اليوم، تألم كثيرا وشرب كثيرا وذهب في اليوم التالي ليدفن والده ويرحل من جديد إلى مكان لا يعرفه احد.

لم يكن منشغلا بأي شيء سوى الألم، كانت له حياة قديس مركبة على هيئة شاعر يجوب البراري والمدن المهجورة من اجل إكسير لهذا الألم الذي أصبح الخبز اليومي له وللناس الذين تجشم من اجلهم هذه المهمة الرسولية التي كان مدفوعا إليها دفعا كقدر غير مردود:

في قصيدة قصيرة عنوانها نبي يقول:

اجمع نفسي
عارضا وجهي للبرق
وانأ أهذي بانتظار إن تتركني
الموجة
على شاطئ مجهول، مقيدا
إلى حجر.

وفي مقطع أخر من قصيدة أخرى يقول:

رجل أراد إن يعزف
على قيثارة الآلهة
سقطت أصابعه في البار بين أقدام
العاهرات.

وفي مكان أخر يسترجع معاناته الشخصية التي انتهت آلان بموته في غربته الغريبة حين تتكرر المأساة التي عاشها هو قبل أربعين عاما اذ يستمع إلى حكاية لاجئ عراقي وصل توا إلى المنفى الذي لا يعرف عنه شيئا ولا يعرف ماذا سينتظره هناك. اللاجئ المستغرق في سرد حكايته لا يحس بالنار عندما تلسع أصابعه السيجارة

مستغرق في دهشة إن يكون هنا
بعد كل الهناكات: المحطات والمرافئ
دوريات التفتيش، الأوراق المزورة...
معلق من سلسلة التفاصيل –
مصيره المحبوك كالليف
في حلقاتها الضيقة
ضيق البلاد التي
تكدست على صدرها الكوابيس.

اغرب ما في سركون بولص الذي كان الموت يعيش معه في كل تفاصيل حياته الصغيرة انه عندما يريد إن يكتب عنه، يجعله متراجعا دائما مثل شاشة خلفية تنطبع عليها الأحداث. وغالبا ما يكون مشهد الموت في شعره بطيئا وتسبقه مقدمات تنذر به برغم انه لا يكتمل في النصوص، بل يبقى إيحاء ودلالة تتوقف قبل إن تصل إلى الذروة وكأنه بذلك يريد تجاوز هذه اللحظة من اجل عبور الزمن دون المرور بها.

في وسط الساحة
سقط الرجل على ركبتيه
هل كان متعبا إلى حد
إن فقد القدرة على الوقوف؟
هل وصل إلى ذلك السد
حيث تتكسر موجة العمر النافقة؟
هل قضى عليه الحزن بمطرقة يا
ترى؟
هل كان إعصار الألم؟
ربما كانت فاجعة لا يطيق على
تحملها احد؟
ربما كان ملاك الرحمة
جاء ببلطته الريشية عندما حان له
إن يجيء
ربما كان الله أو الشيطان.

في وسط الساحة
سقط الرجل فجأة مثل حصان
حصدوا ركبتيه بمنجل.

يسقط الرجل على ركبتيه ولكنه لا يسقط نهائيا فقد تأتي لحظة أخرى تمكنه من القيام مرة أخرى. وكما هو واضح في نهاية القصيدة فأن هذه اللحظة قد تكون أكثر قسوة من الموت " مثل حصان حصدوا ركبتيه " فهي حالة بين موتين، موت مؤجل وموت ناقص. واستخدام الحصان هنا لها دلالات كثيرة، فالحصان كما هو معروف رمز للشموخ والجمال والقوة ولكن بدون سيقان يتحول كل هذا الكبرياء إلى رماد، والأكثر من ذلك إن ما يتبقى هو الحطام وفي هذه الحالة يكون الموت حلا لسلسلة الآلام التي لن تتوقف. هنا تكمن براعة سركون التي جعلته شاعرا متفردا ونسيج وحده.

❖ ❖ ❖

كان يفترض إن نلتقي خلال الأسابيع القادمة في لاهاي، وكنا اتفقنا إن نهيئ ديوانه للترجمة إلى الهولندية قبل نهاية هذه السنة، ولكنه غادر كما في كل مرة إلى مكان لا يعرفه احد. وقبل ذلك كنا قضينا الساعات الأخيرة في بار قرب المسرح الملكي في روتردام بعد نهاية المهرجان نحتسي النبيذ الأحمر.. حينها مر حشد من النساء الجميلات فقام سركون وهو يحمل كأسه المقدسة وقال لهن: هذه الكأس بصحتكن أيتها الفتيات.

في رواياته الصادرة حديثا "طفولة جزائرية ":

" لويس غارديل " يعترف بصمود الجغرافية أمام التاريخ...

ترجمة: عدوية الهلالي

في روايته الجديدة " طفولة جزائرية "، يصف لويس غارديل، مؤلف رواية " قلعة ساغان " الشهيرة مشاعر فتى من أصل اوروبي يعيش في الجزائر في الفترة التي سبقت الحرب الجزائرية.... تدور أحداث الرواية في عام ١٩٥٥،وبطلها فتى يبلغ الخامسة عشرة من عمره يعيش في كنف عائلة برجوازية وقد توفر له كل مايجعله سعيدا لدرجة ان حياته اصبحت حلما جميلا...كان يستحم في البحر ويستلقي تحت اشعة الشمس..يتناول الفواكه الطازجة واللحم المشوي في حديقة قصر عائلته ويفكر في الفتاة الجميلة ميشيل التي تكبره بسنتين...

فجأة، يراود الفتى هاجس أكيد بأن كل شيء سينتهي وان سعادته لن تدوم...يقول ذلك لأصدقائه وأسرته، يقول لهم ان المشهد العائلي الجميل سيصبح مأساة عن قريب وسيسدل الستار على سعادته الى الأبد...لم يكن يعرف حقا من أين يأتيه هذا الشعور لكن لويس غارديل يتذكر شعوره ذاك جيدا لذا بنى عليه أحداث روايته الجديدة التي يستذكر فيها طفولته وفتوته في الجزائر حيث عاش مع عائلته النازحة اليها وشهد كل الصعاب التي مرت على الجزائر الى أن حظيت بالأستقلال....

كان للبساطة التي سرد بها غورديل الأحداث تأثيرها الكبير فصار من الممكن ان يشعر القاريء بسحر يصدر عن الكلمات وعبير يفوح من الجمل وبمشاهد حقيقية مليئة بالحياة...

لم يحاول مؤلف " قلعة ساغان "ان يضيف شيئا من عنده لروايته وهو مامنحها قوة مضاعفة..لقد تحدث بشكل خاص عن" النهاية "والمقصود بذلك نهاية الأيام السعيدة، وشعوره الغريب باقتراب ذلك والذي جعل الحاضر ينزلق تلقائيا نحو الذكريات فيتحدث الكاتب عن نهاية عهد طفولته السعيدة في مسقط رأسه...يقول:"لأمنح نفسي القوة ولأكفكف دموعي...لابد أن اعترف بأن الجغرافية هي التي صمدت أمام التاريخ "...هكذا لخص الكاتب حياته في الجزائر ونهايته القدرية فيها وعودته الحتمية الى فرنسا.....

لم تتضمن رواية غارديل حقدا أو عداوة أو ضغينة ولم تحفل بالحنين أو الندم او الحزن...لقد حفلت بالرقة الموجعة والحياء وظل الكاتب يعبر عن مشاعر انسانية،ودية وأخوية حتى نهاية كتابه دون ان يعبأ بالأعتبارات السياسية والتاريخية، فلديه الأساس الذي بنى عليه روايته وهو قلب الفتى ومشاعره ومشاعر جدته وأصدقائه الذين يرفضون انطواء صفحة حياة عشقوا تفاصيلها ومحيطها... ينتقل الكاتب برشاقة من مشهد استمتاع الفتى بلذة تناول اللحم المشوي من الأسياخ الساخنة مباشرة لدرجة احتراق شفتيه الى مشهد العرب وهم يتظاهرون حاملين لافتاتهم وأعلامهم الخضر والفرنسيون وهم يهرعون الى الموانيء...

لم يترك غارديل شيئا لم يقله لكن ذلك لم يمنعه من استخدام صور رقيقة مؤثرة مثل مشهد سعادة الفتى وهو يصافح الكاتب الفرنسي الشهير البير كامو وسخرية جدته منه حين روى لها ذلك، اضافة الى العديد من المشاهد الرقيقة الأخرى التي منحت الرواية عمقا وقوة أكبر....

عن لوفيغارو